مستقبل الأشراف التربوي في العراق

الدكتور عبد الرحمن الحسون
استاذ مساعد في التربية

ليس الاشراف التربوي بالجديد على الانظمة التربوية المعاصرة. فقد وضع العرب مسؤولية جانب من الاشراف التربوي على (والي الحسبة) والحسبة نظام يرجع نشؤوه الى زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد وصف (النظام بن خلدون) في مقدمته نظام الحسبة بأنه (وظيفة من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر)[1] . ولقد أيد الماوردي (٣٦٤-٤٥٠ هـ) في احكامه السلطانية مسؤولية والي الحسبة في التأكد من صلاح المعلمين لمهنة التعليم واخذه بالمقصر منهم حيث روى (مما يؤخذ ولاة الحسبة بمراعاته من أهل الصنائع في الاسواق ثلاثة اصناف ... منهم المعلمون ، ذلك ان للمعلمين من الطرائق التي ينشأ الصغار عليها ما يكون نقلهم عنها بعد الكبر عسيرا فيقر منهم من توفر علمه وحسنت طريقته ويمنع من قصر وساء من التصدي لما يفسد به النفوس وتخبث به الآداب)[2] . كما نقل البزاز من كتاب (معالم القربة في احكام الحسبة) لمؤلفه محمد بن أحمد القرشي ما يشير الى ان العرب قد اشترطوا في المحتسب التأكد من سن مؤدبي الصبيان (المعلمين) وخلقهم

---

(١) الدكتور يوسف عز الدين (ادارة ولاية بغداد في القرن التاسع عشر) مجلة الاستاذ ، المجلد ٧ لسنة ١٩٥٩ الصفحة ١٨٦ .

(٢) الماوردي ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، الطبعة الاولى مصر ١٩٦٠ الصفحة ٢٥٥-٢٥٦ .

وطريقة تدريسهم واسلوب معاملتهم للصبيان الذين يعلمونهم[٣]. ولقرون عديدة بقي الاشراف التربوي قاصرا على التأكد وبأسلوب تفتيشي من قيام المعلمين بالتعليم الذي يحتاجه المجتمع ودون خروج عن ادابه وتقاليده . وفي اوربا شهدت احدى مدارس زوريخ عام ١١٦٩م اول زيارة تفتيش تربوي قام بها أحد الكهنة من رجال الدين ليتأكد من حسن صفات المعلمين ومدى انسجامها مع اهداف الكنيسة وآرائها وهو أمر لا يختلف كثيراعما كانت تجريه المحاكم العامة الاميركية في القرن السابع عشر من مراقبة المعلمين للتأكد من صفات معينة فيهم[٤] . ولم تنحصر مهمة الاشراف التربوي بالتفتيش عن مواصفات معينة في المعلمين بل وجدناه في بعض الاقطار الاسلامية ينصرف الى معاقبة المعلمين الذين يتنكبون عن القيام بواجباتهم بالصورة التي تناسب القيم التربوية الشائعة آنذاك فقد شرح الاهوائي عددا من آراء علماء المسلمين فيمن قصر من المعلمين بحق طلبته في التعليم الجيد . فقد اجمعت تلك الآراء على ان (مثل هذا المعلم لا يستأهل الالزام بل يستأهل اللوم والتعنيف والغلظة والتأنيب من الامام العدل)[٥] واغلب الظن ان المقصود بالامام العدل هنا هو والي الحسبة .

هذا المفهوم الضيق للاشراف التربوي والذى كان يسمى بحق (تفتيشا) هو ما توارثناه في بلادنا خلال عهود التخلف والاستغلال والاستعمار . فقد كان يتجه الى تتبع زلات المعلمين واحراجهم بابراز نواحي ضعفهم في مادتهم العلمية أو في طريقتهم في التدريس ، وكذلك بابراز ضعف أثرهم في بعض التلاميذ المتأخرين دراسيا . وكان المفتش يراجع دفاتر اعداد الدروس وكراسات التلاميذ باحثا عن هفوة املائية

---

(٣) حكمت عبدالله البزاز ، تقييم التفتيش الابتدائي في العراق (رسالة ماجستير) ، جامعة بغداد ١٩٦٨ ص ، ٧٦ .

(٤) البزاز ، نفس المصدر ، ص ٧٦ .

(٥) الدكتور احمد فؤاد الاهواني ، التعليم في رأي القابسي ، القاهرة ١٩٤٥ ص ٣٢٦ .

أو نحوية أفلتت من المعلم ، ونحو ذلك مما جعل المفتش يبدو شرطيا أكثر منه تربويا • وخلال السنوات الثلاثين الماضية تعرضت عملية التفتيش في اقطار عديدة الى تغيرات جذرية نتيجة لعوامل حضارية كثيرة • فالمجتمعات المعاصرة تتسم بالاهتمامات الشديدة بايديولوجياتها وقيمها واهدافها ومثلها العليا ، وكذلك باهتمامها بأختيار افضل الاساليب التي تشد مواطنيها شدا عقليا ونفسيا وسلوكيا الى فلسفاتها والسيأسأت الناجمة عنها الامر الذي وضع النظم التربوية والتعليمية أمام تحديات ومسؤوليات تربوية خطيرة • ولذلك وجدنا التفتيش وهو جانب هام في العمل التربوي يخرج عن الضيق والجمود في مفاهيمه واهدافه واساليبه • فلم يعد الغرض من التفتيش المراقبة التلصلصية للمعلمين أو التأكد من هوياتهم وصفات معينة فيهم ومعاقبة من يعتبر مقصرا منهم بل اصبح التفتيش عملا فنيا تربويا تعاونيا مسؤولا بالدرجة الاولى عن تقييم وتطوير العملية التربوية كلها في اطار فلسفة تربوية اجتماعية نامية • هذه المسؤولية في التفتيش جعلت الاساس فيه قدرته على التوجيه والاشراف والقيادة وبذلك استحق ان يدعى (اشرافا تربويا) واتسعت مجالاته واهتماماته لتشمل امورا كثيرة في العملية التربوية التعليمية منها واهمها في رأينا :

١ ـ مساعدة المعلم وتشجيعه على النظر في مناهج وكتب المواد التي يدرسها وفي الطرق والاساليب التي يستعملها في التدريس نظرة تحليلية ونقدية بناءة في ضوء الاهداف التربوية السلوكية والعامة وفي ضوء الامكانات المتوفرة •

٢ ـ تغذية المعلم بأستمرار بأحدث ما يستجد في الحقول التربوية والسيكولوجية النظرية منها والعملية مما يهم المعلم ويفيده فيجعله اقدر على فهم ميزات وخصائص نمو طلبته وحاجاتهم وعلى مواجهة مشكلاتهم •

٣ ـ اثارة الحماس الموجه والتفاؤل والاخلاص بين المعلمين والمدراء والطلبة والمعاونين ليضعوا اقصى ما تسمح به قدراتهم وطاقاتهم من العطاء لتحقيق الاهداف التربوية السامية •

٤ – تثمين وتقييم دور المدرسة في المجتمع وتوجيه العاملين فيها نحو ادراك اعمق لاهداف المدرسة التربوية والاجتماعية ونحو الاستثمار الجيد لما في المجتمع من الموارد والمصادر البشرية والمادية والمعنوية بشكل يساعد المدرسة على النجاح في اداء رسالتها .

وفي بلادنا صارت تسمية (التفتيش) تقترن بنوع من الاشمئزاز وجاءت مقررات الحلقة الدراسية لتخطيط السياسة التربوية ١٩٧٠ مرددة لمرات عديدة تسمية (الاشراف التربوي) وبالمفاهيم والمضامين الحديثة[٦] . ولاتخلو اجتماعات ومؤتمرات المشرفين الدورية وكذلك زياراتهم لزملائهم المعلمين والاداريين من التعبير عن اهتماماتهم بالمناهج والكتب وبقية الوسائل المعينة على التدريس الناجح .

ويبدو لنا ان الاشراف التربوي في العراق سيتجه خلال السنوات القادمة نحو التأكيد على المحتوى التربوي الاجتماعي في تطوير العملية التربوية التعليمية كما ستتسع مجالاته واهتماماته لتشمل نشاطات تربوية واجتماعية اوسع في حدود الاهتمامات التي ذكرناها آنفا وكثير غيرها . وفي التأكيد على المحتوى التربوي للاشراف سيبرز كثيرا العامل الانساني في العلاقات بين القائمين على الاشراف وبين العاملين في التعليم ذلك ان الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية للمشرفين الذين انتسبوا الى الاشراف التربوي خلال السنوات العشر الماضية وكذلك اعدادهم المهني هي في رأينا تكوّن اسبابا لتخليص الاشراف التربوي مما علق فيه من مظاهر التعالي والتسلط والجفوة والكبرياء . لابد أن تكون للماضي رواسب ، ونتوقع أن تتردد من وقت الى آخر شكايات متصلة بالاشراف ، ولكننا نتوقع أن يكون ذلك محدودا ، وأن يتناول نواحي يمكن تشخيصها وعلاجها . وهكذا نتوقع – في ضوء ظروفنا وما يجري حاليا – مزيدا من التطور

---

(٦) المجلس الاعلى للتخطيط التربوي ، مقررات الحلقة الدراسية لتخطيط السياسة التربوية ١٩٧٠ ، مطبعة وزارة التربية والتعليم، بغداد.

ومزيدا من الوعي المهني بشكل ينعكس على عملية الاشراف التربـ ـوي ويهيىء لها اطراد النجاح • ليس من شك في ان نجاح الاشراف التربوي يحتاج كثيرا الى ان يسود الود والتعاون والثقة والاحترام المتبادل والصفاء والاخوة بين المشرفين وزملائهم المعلمين والاداريين • كما ان الاتجـاه الذي يتزايد في الوقت الحاضر نحو التأكيد على ضرورة جعـل العمـل التربوي اداة فعالة في التغيير الاجتماعي سيترك أمام الاشراف التربوي في العراق مسؤوليات وآثارا جسيمة •[٧]

أما اساليب الاشراف التربوي فقد توفر لنا منها خلال السنوات الثلاثين الماضية نماذج كثيرة • ورغم ان زيارة المشرف القصيرة للمعلم وتقديمه التقرير الذى يكون في الغالب عديم الجدوى في تطوير كفاءة المعلم المهنية بقيتا أثبت تلك الاساليب واكثرها شيوعا فان اشـكالا أخـرى وجـدت طريقها الى الاشراف التربوي منها الدروس النموذجية والدورات التربوية القصيرة والفرق التوجيهية وبعض المقالات والمطبوعات الى جانب القليـل من الاجتماعات والمؤتمرات التربوية • وفي المستقبل سيشهد الاشـراف التربوي في العراق دفعا شديدا لتماس مباشر في تطويره لمختلف جوانـب العملية التربوية التعليمية • وفي ذلك ستزداد وسائل الاعلام التربـوي والاتصال بين المعلم وبين ما يستجد في العلم والمعرفة ونظريات التربية وعلم النفس وتطبيقاتها التعليمية • فان الاهتمام الجديد بالتلفزيون التربـوي سيؤدي حتما الى استعماله كأداة فعالة في تحسين العملية التربوية • وسيظهر الى الوجود التربوي (تثقيف المعلمين بالمراسلة) لتطوير كفاءات أكبـر عدد ممكن من المعلمين والمعلمات في مختلف ارجاء الجمهورية العراقية[٨] •

---

(٧) للمزيد من الاطلاع على تفاصيل هذا الاتجاه يستطيع القاريء ان يراجع (كتاب المؤتمر الاول للتعليم الجامعي في العراق) المنعقد في بغداد في ١٤ـ١٨ـ٥ـ٩٧١

(٨) تولى الجامعة المستنصرية هذا المشروع في الوقت الحاضر عناية خاصـة •

كما سيظهر المشغل التربوي كوسيلة اشرافية وستزداد الندوات والمؤتمرات والحلقات التربوية التعليمية وستكثر المطبوعات التي تعالج الكثير من الموضوعات التي تهم التربية والتعليم .

وسيزداد اهتمام نقابة المعلمين بتنمية الكفاءات المهنية لمنتسبيها وبالاشراف على دراسات عميقة تعالج مشكلات خاصة في التربية والتعليم. وفي اعتقادنا ان رغبة المعلمين في ان يكون المشرف التربوي ذا الملم واسع في مادة أو أكثر من المواد الدراسية وانتماء ألوان مختلفة في الكفاءات مقرونة بالشهادات العالية الى الاشراف التربوي في السنوات الاخيرة ستجعل الاشراف يتجه نحو التخصص في المواد . وسيكون التخصص في الاشراف واسعا باديء الامر ثم يضيق تدريجيا أي سيكون هناك مشرف للمواد الاجتماعية وآخر للغات وثالث للموادالعلمية وهكذا كما سيتخصص آخرون في المناهج والكتب والوسائل التعليمية الاخرى . ومع ظهور هذا الاتجاه في الاشراف التربوي ستقوم الحاجة الى اسلوب جديد بين اساليبه سبقتنا اليه دول عربية واجنبية وهو اسلوب (المعلم الاول) حيث يكلف اكفأ المعلمين بمهمة الاشراف التربوي في مدرسته او مدارس مجاورة اضافة الى قيامه بالتدريس لساعات قليلة . ولعل النزعة الجديدة التي بدت في تخطيطنا التربوي وهي تشكيل وحدة للاشراف التربوي في مديرية تربية كل محافظة في القطر تعتبر خطوة باتجاه الدعوة الى اساليب جديدة في الاشراف التربوي تفتت فيه حدود افاقة الضيقة ومركزيته الخانقة . ومن ناحية أخرى فأنه من المؤمل ان يؤدي تكوين وحدة اشرافية في كل مديرية الى رفع مستوى الاشراف والى سد الحاجة المتزايدة الى المشرفين في مختلف ارجاء القطر والى تصحيح سوء توزيعهم فيها . اذ مع ان عدد المشرفين قد تضاعف بصورة تثير الدهشة خلال العشرين سنة الماضيةحتى

---

(٩) مقررات الحلقة الدراسية لتخطيط السياسة التربوية ٩٧٠ ص ٥٤ .

بلغ (٢٠٦) مشرف ومشرفة حوالى نهاية عام ٩٦٩ فما زالت الحاجة ماسة الى المزيد من المشرفين والمشرفات[١٠] . ذلك ان معدل ما يصيب المشرف الواحد هو (٢٢٨) معلما وهو عدد يعوق كثيرا نجاح عملية الاشراف التربوي وان ألـ (٧٤) مشرفا ومشرفة في محافظة بغداد يقابلهم (٦) مشرفين ومشرفات فقط في ذي قار . اننا ينبغي أن نتيح الفرصة لمزيد من اللقاءات بين المشرفين التربويين والمعلمين ، وأن تكون هذه اللقاءات من الطول بحيث تتسع لتبادل وجهات النظر في مواد الدراسة وطرق التدريس . وينبغي أن نتذكر ان المشرف لن يقتصر على زيارات يدون فيها بعض الملاحظات ، ويكوّن بعض الافكار ، ويصدر بعض التوصيات ، ولكنه سيكشف بعض الصعوبات أو المشكلات الميدانية العامة، وقد يرى أن بعض هذه المشكلات ينبغي أن تخضع لدراسة علمية ، أو تطرح للمناقشة في مؤتمر أو اجتماع يعقده المعلمون . هذه غاية من الغايات التي تبين أن عدد المشرفين التربويين لايمكن اختصاره دون تأثير سيىء في تحقيق أهداف الاشراف.[١١] وامام هذه الحاجة الى المشرفين سيدعى مديرو ومديرات المدارس الى نوع من الحزم والجدية والتوسع في ممارسة مهامهم ومسؤولياتهم في الاشراف التربوي .

أما الناحية الادارية في الاشراف التربوي فقد كان شأنها شأن ادارة النظام التربوي في البلاد بصورة عامة حيث ترددت بين مركزية ضيقة مستقرها مركز الوزارة في بغداد وبين مناطق ثلاث للقطر كله . وفي الوقت الحاضر حيث يقوى اتجاه تربوي سليم نحو مركزية في الامور الفنية ولا مركزية في الامور الادارية نجد الاشراف التربوي يتأثر بذلك

---

(١٠) الدكتور صبحي خليل ومحمد مصطفى يحيى ، التفتيش التربوي نظريا وعمليا ، بغداد ١٩٧٠ ص ٢٠٣

(١١) في شباط ٩٧٢ دار في اوساط وزارة التربية ان قائمةستعلن قريبا بتعيين (١١٣) مشرفا ومشرفة من بين المعلمين والمعلمات الذين تخرجوا في دورة للاشراف التربوي .

الاتجاه وسيتحقق له في المستقبل ما رسمته له خطة السياسة التربوية الجديدة بحيث يكون في مديرية تربية كل محافظة وحدة اشرافية تستمد التوجيه والاشراف الفنى من احدى مديريات وزارة التربية كما سيتخلص من الكثير من المعوقات الروتينية وتذلل مشكلاته المادية .

هذا التطور الذى اصاب الاشراف التربوي وهذه الاتجاهات التي يتجه نحوها في المستقبل هي في رأينا نتيجة طبيعية للتطورات الحضارية المادية والمعنوية التي تعرض لها مجتمعنا خلال السنوات الثلاثين الماضية ولاسيما الوعي التربوي المبارك الذي اجتاح بلادنا بعد الحرب العالمية الثانية . وفي اعتقادنا ان الاشراف التربوي قد تأثر كثيرا في ما اصاب اهدافه واساليبه ومفاهيمه من التطورات بواحد من أشد العوامل تعميقا ودفعا للوعي التربوي ذلك هو الابحاث والدراسات والمقالات التربوية الاكاديمية منها والتطبيقية التي ظهرت خلال تلك الفترة . فمنذ الاربعينات تولت (مجلة المعلم الجديد) نشر طائفة جيدة من المقالات التي تناولت جوانب مختلفة من الاشراف التربوي .[١٢] وفي ١٩٥٨ نشرت (مجلة الاستاذ) بحثنا الموسوم بـ (من مشاكل التفتيش في العراق) والذي كان اول بحث علمي ميداني وفر لجماعة من المعلمين الحرية في ابداء رأيهم في التفتيش وموقفهم منه.[١٣] وفي نهاية عام ١٩٦٨ قدم السيد حكمت البزاز الى القسم الجامعي للتربية وعلم النفس بجامعة بغداد رسالة ماجستير بعنوان (تقييم التفتيش الابتدائي في العراق) . وفي ١٩٧٠ صدر كتاب الدكتور صبحي خليل ومحمد مصطفى الموسوم بـ (التفتيش التربوي نظريا وعمليا) ولقد صاحب ظهور هذه البحوث والمقالات ان زاد اهتمام المؤسسات التربوية وبصورة خاصة وزارة التربية ومعاهد المعلمين ودورها وكلية التربية بجامعة بغداد والجامعة المستنصرية بالاشراف التربوي . فوزارة التربية ما فتئت تعد وتنظم دورات اشرافية خاصة وقسم

---

(١٢) مثال ذلك مقالات الدكاترة والسادة محمد ناصر وداود القصير ومحمد حسين آل ياسين ونعيم صرافة وحسن احمد السلمان ومجيد دمعة ومحمود الجومرد ومحمد مصطفى ومحمود خالد الطائي وغيرهم .

(١٣) مجلة الاستاذ ، المجلد ٦ ، مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٥٨ .

التربية وعلم النفس بكلية التربية يرعى الاشراف التربوي كواحد من الاختصاصات ولاتخلو مناهج قسم التربية وعلم النفس بالجامعةالمستنصرية من مادة خاصة بالاشراف التربوي • ونتيجة لذلك فقد تسلطت اضواء شديدة على كفاءات المشرفين حتى صار الانتماء الى الاشراف التربوي يستلزم توفر الخبرة العملية الناجحة في التعليم والشهادة العالية والتخرج بنجاح في دورة اشرافية والسمعة الطيبة ، وتعرضت اهداف الاشراف الى النقد والتحليل حتى اصبحت الان اكثر وضوحا في اطار تربوي اجتماعي ووضعت اسس الاشراف التربوي واساليبه امام التقييم الموضوعي حتى تركزت الدعوة الان الى ضرورة ارساء تلك الاسس على التخطيط وعلى القيادة العلمية والفنية وعلى التعاون والتصرف الديمقراطي وعلى استعمال وسائل القياس العلمية في الكشف عن مستوى الكفاءات والقدرات لغرض تطويرها في مختلف جوانب العمل التربوي • كما تعددت الاساليب بشكل خرجت فيه عن نطاق الضيق والجمود • وفي المستقبل سيزداد تأثر الاشراف التربوي بنتائج ما يستجد من البحوث والدراسات وسيتحمل المشرفون انفسهم مسؤوليات جديدة في القيام بالبحوث المطورة لنشاطاتهم وفي التعاون مع البرامج الاشرافية في المؤسسات التربوية •

والخلاصة فان ظروفا حضارية في بلادنا قد تركت في الاشراف التربوي آثارا قوية ووضعته أمام مسؤوليات جديدة • وتزداد تلك المسؤوليات ضخامة كلما ازداد ادراكنا بأن أفضل وسائل تحسين التربية والتعليم وتطويرها هو الاهتمام بتدريب المعلمين وهم في الخدمة • ولانجد في التدليل على اهتمام الدولة بالاشراف التربوي مثلا أبلغ من الرعاية الكريمة التي تفضل بها السيد رئيس الجمهورية اذ حرص على ان يلقى المشرفين بنفسه في مؤتمرهم الاول المنعقد في بغداد صباح السبت ١٢شباط ١٩٧٢ ويوجه اليهم ارشاداته السديدة • ولكي يتم تحقيق ما حاولنا ان نترسمه هنا من المؤشرات والطموحات فان الاطراف المعنية بمستقبل التربية والتعليم في البلاد مدعوة كلها الى المزيد من البذل والعطاء والتعاون في تدعيم الاشراف التربوي والانهاض به •